شرح الأربعين النووية

الحديث السابع عشر

إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ

اللقاء العشرون

الحديث السابع عشر:

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- قَالَ: " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ" رواه مسلم

ترجمة الراوي:

شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر صحابي جليل، وهو ابنُ أخي حسان بن ثابت، الأنصاري، شاعر النبي -ﷺ-، ومن سادات الصحابة وفضلائهم، عالمًا عاملاً.

قال عبادة بن الصامت: كان شداد ممن أوتي العلم والحلم.

شهد أبوه بدرًا، واستُشهد بأحد.

وروى الطبراني عن شداد بن أوس: أنه كان عند رسول الله -ﷺ- وهو يجود بنفسه، فقال: "ما لك يا شداد؟" قال: ضاقت بي الدنيا، فقال: "ليس عليك؛ إن الشام سيفتح، وبيت المقدس سيفتح، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة فيهم". فنزلَ بيت المقدس من الشام. وروى عنه أهل الشام. وقدم دمشق والجابية، وسكن بيت المقدس، وكان شهد اليرموك.

وروى ابن عساكر: كان أبو الدرداء يقول: إن لكل أمة فقيهًا، وإن فقيه هذه الأمة شداد بن الأوس.

وقال سعيد بن عبد العزيز: فُضِلَ شداد بن أوس الأنصاري بخصلتين: ببيان إذا نطق، وبكظم إذا غضب.

وعن شداد بن أوس أنه قال: الموت أفظع هولاً في الدنيا والآخرة على المؤمن. والموت أشد من نشر المناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أن الميت نُشِرَ فأخبر أهل الدنيا بألم الموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم. مختصر تاريخ ابن عساكر

وكانت له عبادة واجتهاد، وكان إذا دخل فراشه يتقلب عليه، ولا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار قد أسهرتني وأذهبت عني النوم، ثم يقوم فيصلي حتى يصبح، فرضي الله عنه وأرضاه.

وروى الذهبي: قال سلام بن مسكين: حدثنا قتادة أن شداد بن أوس خطب فقال: أيها الناس؛ إن الدنيا أجل حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة أجل مستأخر، يحكم فيها ملك قادر ألا إن الخير كله بحذافيره في الجنة، وإن الشر كله بحذافيره في النار. سير أعلام النبلاء

وقال ابن الأثير: "كان شداد بن أوس كثير العبادة والورع والخوف من الله تعالى" أسد الغابة في معرفة الصحابة

وتوفي بفلسطين، ودُفن ببيت المقدس، سنة ثمان وخمسين، وكان عمره خمسًا وتسعين سنة.

منزلة الحديث:

هذا الحديث عظيم، وهو من قواعد الدين، من عمل به نال كل خير، وسَلِمَ من كل ضَيْر. [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

قال ابن دقيق العيد – رحمه الله –: هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد كثيرة.

وقال النووي – رحمه الله –: هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام.

شرح الحديث:

((إِنَّ اللهَ كَتَبَ))؛ أي: أوجب عليكم الإحسان في كل شيء، قال ابن رجب: ولفظ الكتابة يقتضي الوجوب عند أكثر الفقهاء والأصوليين، خلافًا لبعضهم، وإنما يعرف استعمال لفظة الكتابة في القرآن فيما هو واجب حتم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾

[النساء: 103]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة: 216].

وحينئذ فهذا الحديث نص في وجوب الإحسان، وقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195].

((الإحسان)) مصدر أحسن يُحسِن، إذا أجاد وأتقن وأتى بالشيء على أحسن الوجوه وأكملها، والمراد طلب تحسين الأعمال المشروعة في كل شيء.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه "مدارج السالكين": (منزلة الإحسان هي لب الإيمان وروحه وكماله).

فهو لب الإيمان، وروح الإسلام، وكمال الشريعة، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال، وأعظم درجات الإحسانِ: الإحسانُ مع الله جل وعلا، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقات، حتى يشمل البهائم والعجماوات، قال-ﷺ-:«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ».

قال الشيخ ابن عيمين رحمه الله: الإحسان ليس خاصاً بشيء معين من الحياة بل هو في جميع الحياة.

"إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ"

قال الشيخ ابن عيمين رحمه الله: وكتابة الله تعالى نوعان: كتابة قدرية، وكتابة شرعية.

الكتابة القدرية لا بد أن تقع، والكتابة الشرعية قد تقع من بني آدم وقد لا تقع.

مثال الأول: قول الله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) فهذه كتابة قدرية.

ومثال الثاني: قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) أي كتب كتابة شرعية.

ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة، ثم ضرب مثالًا لها أو مثالين. ((فَإِذَا قَتَلْتُمْ))؛ أي: أردتم قتل من يجوز قتله ((فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ)) و(القِتلة) بكسر القاف، وهي الهيئة والحالة، بأن تختاروا

أسهل الطرق وأخفها إيلامًا وأسرعها زهوقًا، ويستثنى منه قتل قاطع الطريق بالصلب، والزاني المحصن بالرجم؛ لورود النص بذلك. ويستثنى من ذلك القصاص، ففي القصاص يُفعل بالجاني كما فُعِل بالمقتول.

((وَإِذَا ذَبَحْتُمْ)) ما يحل ذبحُه من الحيوانات ((فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ)) إحسان الذبح في البهائم: الرفق بها، فلا يصرعها، ولا يجرها من موضع إلى آخر، وإحداد الآلة، وتوجيهها إلى القِبلة، والتسمية، والإجهاز، ونية التقرب إلى الله بذبحها، وإراحتها، وتركها إلى أن تبرد، وشكر الله حيث سخرها لنا ولم يسلطها علينا، ولا يذبحها بحضرة أخرى.

قال الشيخ ابن عيمين رحمه الله: والفرق بينهما: أن المقتول لا يحل بالقتل كما لو أراد إنسان أن يقتل كلباً مؤذياً، فنقول: أحسن القتلة، وإذا ذبح فنقول: أحسن الذبحة، وهذا فيما يؤكل، أي يحسن الذبحة بكل ما يكون فيه الإحسان.

((وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ))؛ أي: ليسُنَّ كل ذابح ((شَفْرَتَهُ))؛ أي: سكينه ((وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ)) بعرض الماء عليها قبل ذبحها لتشرب، وأن يسوقها إلى موضع الذبح برفق، وأن يضجعها بمكان سهل غير وعر، وأن يجعل إمرار السكين عليها بقوة؛ ليسرع موتها فتستريح من ألمه.

فهل من المعقول لمن يحسن في الذبح ألا يحسن في الحياة؟ حقا إنه مثال لا يخطر على البال.

فنحن مأمورين بالإحسان في كل صغيرة وفي كل كبيرة؛ في كل قول وفي كل فعل، في كل أخذ وفي كل عطاء.

نحن مأمورين بالإحسان في معاملتنا لكلِّ مخلوق؛ من إنسان أو حيوان...، وقد أمر الله تعالى بالإحسان أمرًا مطلقًا عامًّا، فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195].

وَالْإِحْسَانُ نَوْعَانِ:

1*الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ.

*فَالْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ -كَمَا فِي ((الصَّحِيحِ))- فَقَالَ: ((أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)).

2*وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِ.

*وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِ؛ فَهُوَ إِيصَالُ النَّفْعِ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ إِلَيْهِمْ، وَدَفْعُ الشَّرِّ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ عَنْهُمْ. فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ: أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْلِيمُ جَاهِلِهِمْ، وَوَعْظُ غَافِلِهِمْ، وَالنَّصِيحَةُ لِعَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ، وَالسَّعْيُ فِي جَمْعِ كَلِمَتِهِمْ، وَإِيصَالُ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ إِلَيْهِمْ، عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهِمْ.

من القواعد الكُبرى لدين الإسلام: الأمرُ بالإحسان بشتَّى صُوره ومُختلَف أشكاله في جميع الحالات، وكافَّة التصرُّفات، يقول -جل وعلا-: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) [النحل: 90].

فأهلُ الإحسانِ همُ الفائِزون بمحبَّة الله -جل وعلا- (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: 195].

أصحابُ الإحسان هم السُّعداءُ بمعيَّة الله ورعايتِه ولُطفِهِ ورحمته، قال -جل وعلا-: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [النحل: 128].

وبالجُملة فهم في الدَّارَين مُتنعِّمون، وبرِضا ربِّهم فائِزون: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ) [الذاريات: 15، 16].

للإحسانِ مفهومٌ خاصٌّ يشملُ الإحسانَ الذي هو أفضلُ منازلِ العبودية بتنقيةِ المقاصِدِ من شوائبِ الحُظوظ، وذلك بالإخلاصِ الكاملِ لله -جل وعلا-؛ توجُّهًا وإرادةً ومقصِدًا، ويكونُ بالعمل الصالحِ المبنيِّ على السُّنَّةِ المُحمَّديَّة اعتقادًا وعملاً.

الإحسان من أفضل منازل العبودية؛ بل هو حقيقتها ولبها وروحها وأساسها، "أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراكَ".

❍ أن يعبد ربه مستحضرا لقربه منه واطلاعه عليه، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضا إخلاص العبادة لله وتحسينها وإكمالها، ومن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ أعلى مراتب الدين.

❍ويكون العمل موافقا لما شرعه الله على لسان رسوله خاليا من البدع والمخالفات.

والإحسانُ له مفهومٌ عامٌّ يعني الإنعامَ على الغير، والإحسانَ في الأفعال كلِّها؛ بالإتقانِ والكمال من أعمال الدين أو الدنيا.

الإحسان: مُعاملةُ الخلق بالحُسنى في جميع الأقوال والأفعال.

الإحسان خلق جميل؛ هو دليل على النبل، واعتراف بالفضل، وعرفان للجميل، وقيام بالواجب، واحترام للمنعم. ينبئ عن الصفاء، وينطق بالوفاء، ويترجم عن السخاء.

بالإحسان يشترى الحب، ويُخطب الودّ، وتكسب النفوس، ويُهيمن على القلوب، وتستعبد الأفئدة. الإحسان عطاء بلا حدود، وبذل بلا تردد، وإنعام دونما منّ، وإكرام لا يلحقه أذى.

الإحسانُ في نُصوص الوحيَيْن يُشكِّلُ جوهرَ العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فدائرتُه تشملُ النفسَ والرعيَّةَ والأُسرةَ والأقارِبَ، ثم المُجتمعَ والإنسانيَّةَ عامَّةً.

في الصحيحين: "أن امرأةً بغِيًّا -أي: زانِية- رأَت كلبًا يلهَثُ من العَطَشِ يأكلُ الثَّرَى، فنزَعَت خُفَّها وأدلَتْه في بئرٍ فنزَعَت من الماء ثم سقَت ذلك الكلبَ، فغفَرَ اللهُ لها".

بل إن الإحسانَ في دائرته الواسِعة الرَّحْبَة يشملُ المُخالفين في العقيدة، وذلك بالعفو والصفحِ عمَّا يصدُرُ منهم؛ قال -جل وعلا-: (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [المائدة: 13].

الإحسانُ في الإسلام يشملُ دائرةَ الحياة كلها، وما فيها من نباتٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: 56].

قال-ﷺ-: "قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فأمَرَ بقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فأوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ: أنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ" صحيح البخاري

"دخلَ رسول-ﷺ- حائطًا لرَجُلٍ مِن الأنصارِ فإذا جَملٌ، فلَمَّا رأى النَّبيَّ -ﷺ-حنَّ وذرِفَت عيناهُ، فأتاهُ النَّبيُّ -ﷺ- فمَسحَ ذِفراهُ فسَكَتَ، فقالَ: مَن ربُّ هذا الجَمَلِ، لمن هذا الجمَلُ؟ فَجاءَ فتًى منَ الأنصارِ فَقالَ: لي يا رسولَ اللَّهِ فَقالَ: أفلا تتَّقي اللَّهَ في هذِهِ البَهيمةِ الَّتي ملَّكَكَ اللَّهُ إيَّاها؟ فإنَّهُ شَكا إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدْئِبُهُ" صحيح أبي داود.

من الإحسان الواجِبِ: مُعاشَرةُ المُسلمين بالحُسنى، ومُعاملتُهم المُعاملةَ الفُضلَى، خاصَّةً الوالدَيْن والأولادَ والزوجَيْن والأقارِب، يقول -جل وعلا-: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) [البقرة: 83].

وقال تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53]، وأمر الله بالْإِحْسَانَ لِسَائِرِ النَّاسِ بِالْقَوْلِ لِأَنَّهُ الْقَدْرُ الَّذِي يُمْكِنُ مُعَامَلَةُ جَمِيعِ النَّاسِ بِهِ، وجعل الإسلام نفع الناس والإحسان إليهم من العبادات وقرنها بعبادة الله للدلالة على فضلها وشرفها، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها قولا وفعلا قال الشاعر: أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهم فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ.

ومن الوسائل الهامة أيضا المدارة وهي غير المداهنة، ومعنى المدارة لين الكلام وابتسامة، وحسن معاشرة، والفرق بين المداهنة والمدارة ان المدارة بذل الدنيا لصلاح الدنيا والدين وهي مباحة، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا والعياذ بالله.

وأيضاً خدمة الناس وقضاء حوائجهم، والسعي في تنفيس كروبهم، قال-ﷺ-: "أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سُرُورٌ يدْخِلُهُ على مسلمٍ، أوْ يكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً، أوْ يقْضِي عنهُ دَيْنًا، أوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا، ولأنْ أَمْشِي مع أَخٍ لي في حاجَةٍ أحبُّ إلَيَّ من أنْ اعْتَكِفَ في هذا المسجدِ، يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا" السلسلة الصحيحة

قال-ﷺ-: "إنَّ في الجنةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظَاهِرِها لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وباتَ قائِمًا والناسُ نِيامٌ" صحيح الترغيب

وأولى الناس بالخدمة والرعاية الأهل والأقرباء، قال رسول الله -ﷺ-: "خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي" صحيح الترغيب، عن الأسود قال: سألت السيدة عائشة رضي الله عنها: عن ما كان النبي -ﷺ- سَأَلْتُ عَائِشَةَ ما كانَ النبيُّ -ﷺ- يَصْنَعُ في بَيْتِهِ؟ قالَتْ: كانَ يَكونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ - تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ" صحيح بخاري.

ومن لا يبالي بكسب قلوب أقرب الناس إليه كالوالدين، والزوجة والأقرباء، محروم محروم من عبادة عظيمة تقربه لرب العالمين.

فالمحسن لا يؤذي أحدا، فإن آذاه أحد عفا وصبر وصفح وغفر، وإذا عامل الناس عاملهم بالفضل والإحسان، فيعطيهم وإن منعوه، ويَصِلهم وإن قطعوه، ويمنّ عليهم وإن حرَموه، وإنما كان كذلك لأنه كان بالله غنياً، وبه راضياً، ومنه قريباً، ولديه حبيباً.

من الإحسانِ: العفو عن الحقوق الواجبةِ للإنسان عند غيره، والتنازُل عنها لوجهِ الله -جل وعلا- (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: 134].

ومن أعظم الإحسان: بَذلُ المعروفِ بشتَّى صُوره للخلقِ؛ قال -ﷺ- مُعلِّمُ البشريَّةِ الإحسانَ والرحمةَ: "كلُّ معروفٍ صدَقَةٌ". متفق عليه.

الإحسانُ معنًى جميلٌ، مطلوبٌ حتى في مجالات اللقاءات والمُحاورات، ويتأكَّدُ ذلك حالَ الخُصومات والمُنازَعات؛ الله -جل وعلا- يقول: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) [الإسراء: 53]، ويقول -جل وعلا-: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [فصلت: 34].

الإحسانُ مطلوبٌ في التحاوُر بين المُسلِم وأهلِ الكتابِ؛ لتَصِلَ المُجادَلَةُ إلى الثَّمرةِ اليانِعَة والمقاصِد المُبتغَاة؛ (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [العنكبوت: 46].

والتجَّار ما أحوَجَهم إلى أن يأخُذوا أنفُسهم بمسْلَكِ الإحسان والرحمة؛ بأن يتَّقوا اللهَ -جل وعلا- في المُسلمين، فلا يُقدِموا على الاستِغلال الذي انتشرَ في هذه الأزمان، ولا على الاحتِكار والمُبالَغَة في الأسعار؛ بل الواجِبُ أن يتذكَّروا أن ربًّا عظيمًا يُراقِبُ نيَّاتهم وأقوالَهم وأفعالَهم؛ فعليهم أن يتذكَّروا أن المُسلمين إخوةٌ، وأن المؤمنَ يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه؛ فعليهم أن يُحسِنوا إلى الناسِ، فيربَحوا رِبحًا معقولاً يُبارَك لهم فيه، ويحمَدوا العاقبةَ دُنيا وأُخرى؛ قال -جل وعلا-: (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) [القصص: 77].

من الإحسان الواجِبِ أن كلَّ راعٍ يجبُ عليه أن يقُودَ الرَّعِيَّةَ وَفقَ قاعدة العدلِ والإحسانِ، فيكونُ بهم رحيمًا رفيقًا؛ للصغير أبًا، وللكبير ابنًا، وللمِثلِ أخًا: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الشعراء: 215].

قال عُثمان -رضي الله عنه- صحِبنا رسولَ الله -ﷺ- في السَّفَر والحَضَر، كان يعودُ مرضانا، ويتَّبِعُ جنائِزَنا، ويغزُو معنا، ويُواسِينا بالقليل والكثير. رواه أحمد بإسنادٍ صحيحٍ، بل إنه -عليه الصلاة والسلام- كان يُؤثِرُهم على نفسِه.

إنه الإحسانُ الذي علمنا عمرُ الفاروقُ -رضي الله عنه وهو مضرِبُ المثَل الأعلى في العدل والإحسان بالرَّعِيَّة-: يدخلُ على عجوزٍ من عجائزِ المدينة، يحمِلُ عنها الكلَّ، ويُوصِلُ إليها الماءَ، وهي لا تعرِفُ من هذا الرجل.

الإحسان واجب على كل من يتعامل مع الناس: فالطبيب يكسب المرضى والأستاذ يكسب التلاميذ، والموظف يكسب المراجعين، وكم سمعنا عن طبيب يتبرم من المرضى ولا يحسن إليهم، ومن معلم ترك تلاميذه، وموظف يعرقل معاملات الناس، وهنا يدعو المظلوم على الظالم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سمعتُ رسولَ الله -ﷺ- يقول في بيتِي: "اللهم من ولِيَ من أمر أُمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُق عليه، ومن ولِيَ من أمر أمَّتي شيئًا فرَفَقَ بهم فارفُق به". رواه مسلم.

قال -ﷺ-يقول: "من ولاَّه اللهُ شيئًا من أمور المُسلمين فاحتَجَبَ دونَ حاجتهم وخلَّتهم وفقرِهم احتَجَبَ اللهُ دونَ حاجتِهِ وخلَّتِهِ وفقرِهِ يوم القيامة"صحيح أبي داود.

إنه الإحسانُ الذي يجعلُ المسؤولَ يجتهِدُ وينصَحُ لمن تحت رِعايتِهِ وولايتِهِ؛ يقول معقِلُ بن يسارٍ: سمِعتُ رسول الله -ﷺ- يقول: "ما من عبدٍ يسترعِيه اللهُ رعِيَّةً يموتُ يوم يموتُ وهو غاشٌّ لرعِيَّته إلا حرَّمَ الله عليه الجنةَ". متفق عليه. وفي روايةٍ: "فلم يُحِطها بنُصحِهِ لم يجِد رائِحَةَ الجنةِ".

قال ابن القيم: فإنَّ الإحْسَان يفرح القلب ويشرح الصَّدر ويجلب النِّعم ويدفع النِّقم، وتركه يوجب الضَّيم والضِّيق، ويمنع وصول النِّعم إليه.

علينا جميعاً أن نسعى لنكون من المحسنين، لأن الله يحب المحسنين، ولا يضيع أجر من أحسن عملا، قال تعالى: (...وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) [النجم:31]،

إِنَّ مِنْ رَحمَةِ اللهِ وفضْلِهِ أَنْ جعَلَ الجزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، ومِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ جعَلَ ثَوَابَ الإِحْسَانِ إِحْسَانًا كمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

وتَأَمَّلُوا فِيمَا يَنْتَظِرُ المحْسِنُونَ والشَّاكِرُونَ؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُكُمْ -ﷺ-: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ"، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. رواهُ مُسْلِمٌ.

وقد ثبت عن النبي في صحيح مسلم تفسير الزيادة المذكورة في هذه الآية الكريمة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة.

قال ابن رجب رحمه الله: وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه المراقبة لله وحضور القلب كأنه يراه وينظر إليه، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عيانا في الآخرة.

نسألُ اللهَ أنْ يرْزقَنَا الإحسانَ في أعمَالِنَا وأخلاقِنَا، والإخْلاصَ في الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ، وأن يجعلَنا وإياكن من أهل الإحسان في كل شيءٍ، إنَّهُ بكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيلٍ، وهوَ حَسْبُنَا ونِعمَ الوكيلُ، والحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ.

المراجع:

❶أهمية الإحسان: حسين بن عبد العزيز آل الشيخ.

❷الإحسان إلى الناس: الشيخ إبراهيم المشهداني.

❸شرح الأربعين النووية ابن عثيمين.